

الفضل الثالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة^(١) متعددة الألوان، حتى في القرون التي كانت فيها «دار السلام» مفصولة عن «دار الحرب» - أي السلاطنة النصرانية. لم تنقطع

(١) كلمة مدينة هي من الكلمات التي حار اللغويون في معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الأستاذ الدكتور محمود حجازي في كتابه «اللغة العربية عبر القرون» أن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر أنها الميم ليست أصلاً وأن الأصل هو دين أو دان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الإثبات العملي فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان في العربية والعبرية والآرامية هو القاضي «بيت دين» في العبرية هي محكمة كما تعرف العربية «الدائن» و«المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعني أساساً القانون وما يتعلق به =

أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). هذه هي حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلالة تجار الرقيق، وكان هؤلاء في وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الأبواب المنيعه). وإلى جانب أولئك جميعاً تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عدداً وتدفقاً حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنابات الوادى تجرى فى عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها - طابع تعدد الألوان كما كان يبدو فى معاهدها العلمية

=من ضوابط والتزامات. أما الصيغة ذات الميم فظهرت فى الارامية بمعنى وحدة قضائية، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعاً وحدة قضائية. وعندما انتقلت الكلمة إلى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة فى العربية.

وفى خاناتها التى تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم - وان كانت جذيرة بالملاحظة - التى أوردتها ناشرة كتاب «دليل المسافر» سنة ١٨٩٦ عن دار موراي للنشر فى وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الحلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلاحظ العين أنه صلب متين البنيان)..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصرى على الشرق التليدى، وإن كانت الاضافة الجديدة لا تمثل أفضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب

الأرض في الليفانتيين نسبهم المصريون المضيفون إلى الشام وهي كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب في مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرائهم، ولكن رصيدهم في البنوك كان يتمتع دائماً بأطيب صحة..

وليس اسم العاصمة في اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمسير - عن خطة أو عفواً - هو السياسة المتبعة، فانهسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسى، وما جذب أيضاً هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب في أواخر عهد فاروق قد سقط في وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة

١٩٥٢) وقد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى «التيرف» الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجاً أيضاً على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففى تلك الأيام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبية ترد لها بالطائرة من باريس، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة. لم يعد فى القاهرة الحديدة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء، ولا قمم تشمخ فيها الأناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العين لا تخطئ أن تلاحظ تباين الأنماط بين أهل القاهرة، فالمدينة فى ذاتها - بتعدد أحيائها وأحوالها - تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى.